مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (32) العدد (5)2010
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (32) No. (5) 2010

وظيفة الشّعر الجماليّة بين المنفعة والمتعة

الدكتور فاخر صالح ميّـا*

(تاريخ الإيداع 19 / 5 / 2010. قبل للنشر في 13 / 12 / 2010)

□ ملخّص □

إنّ المتعة الجمالية وسيلة الشّعر للوصول إلى الغاية ، فالجمال وسيلة الشّعر إلى غاية الجمال، وحسب رؤية يونج فإنّ ماهية الشّعر أصبحت قوة ذات قدرة عظيمة على التأثير لا يمكن مضاهاتها ،وما نزال نتوارثها ، فالشّعر في جانب لم يحن رِأسه أبداً بل ارتقى بماهيته على الدّوام ، كما ارتقى مع المتنبي العظيم مثلا الذي كان يهدي أكثر ممدوحيه عظيم شعره ،ويضمّنه فخره بنفسه ،ويضفي عليهم من عظمته ، ويبقى التقاط جمال ماهية الشعر من الأمور الصّعبة ، لأنّ مكمن الجمال في الشعر ليس جزءاً محدّداً في الماهية بل في كلـّيته لأنّ بعضهما – الجمال والماهية – يعكس الآخر ويبادل به في خفاء وجودهما ، فالحقيقة الأبديّة هي أنـّه من طبيعة الجوهر أن يختفي ، والاختفاء هو جوهر الجمال أي أنّ ماهية الجمال هي جمال الماهية . ولعلّ خصوصيّة مصطلح : "الشعر" تكمن في أنه واقعة جماليّة، والجمال ظلّ إلى الآن سؤالاً محيّرًا يدور في فلك يتنازعه قطبان عنيدان ، أولهما (المنفعة) وثانيهما (المتعة) في آن ولم يستطع قطب من هذين القطبين أن يكون مركز هذا الفلك أو أن يحدّد وظيفة الجمال في إطار الغاية أو في إطار الوسيلة.ولعلّ اتفاقاً – لو حدث – بين القطبين – كان سيرضي ماهيّة الجمال التي تحمل في ذاتها " المنفعة و المتعة ".

الكلمات المفتاحية: المنفعة والمتعة ، الجمال والماهية ،غوته.

* أستاذ – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (32) العدد (5)2010
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (32) No. (5) 2010

The Beauty of Poetry Function between the Poles of Benefit and Interest

Dr. Fakher Saleh Mayya*

(Received 19 / 5 / 2010. Accepted 13 / 12 / 2010)

□ ABSTRACT □

According to the understanding of Yong, that the reality of poetry because a force of great power on the effect that cannot be continued and stayed to inherit us and inherit it forever, that poetry didn't ever bow its head but arrived by its content forever , as it ascended with Great Almutanabi example: he presented most of his praisers his cheapest poetry and specializes himself by wonderful singing which includes his sadness, pain, pride , satisfaction and his dissatisfaction. And when he said great poetry in his praisers, he was falling himself on them, and the content beauty catching stays from the difficult matters, because beauty's place in poetry is not a certain part in the content , but in both because both of them, content and beauty, reflect the other and exchange by it in the disappearance of their existence, the eternal fact is that the nature of jewellery is to disappear, and the disappearance is the basis of beauty that the beauty of content is the content of beauty.

Keywords: benefit and interest , beauty and content, Gote.

* **professor , Deportment of Arabic, faculty of arts and humanities, Tishreen university , lattakia, Syria.**

مقدّمة:

لعلّ أيّ مصطلح أو (موجود) في حيّز (الوجود) ، يضع هذا المصطلح الموجود في موضع المساءلة الوظيفية ، بل إنّ نقيض الوجود ذاته (العدم) لا يعفى من هذه المساءلة التي تقف به عند حدود وظيفته الكبرى الكامنة في أنــّه إثبات للوجود من تحققّ (نفيه) ، ولكن قانون الوظيفة – الذي يلحّ على الموجودات ،ويتدخل بها بقوة ،و يسائلها واضعاً إياها في ميزان المنفعة كائنة ما كانت – على الرغم من شموليته وتغلغله في كل المحاور الفلسفية والمعرفية والعلمية إلا أنــّه بهذه السّمة الامتداديّة يعانق الوجود ويبتغي الشّمول من خلال جزيئاته الفنيّة الصغيرة التي تصبّ في معنى الإنسانيّة ، "فعندما يحبّ المجنون – ليلى – فإنــّه بهذا ينفذ منها إلى الإنسانيّة "[2]. إلا أنه يتدخل بحذر وريث في مصطلح غنيّ عصيّ على التحديد، ذي حريــّة مقدّسة على مرّ العصور. ولعلّ خصوصية مصطلح (الشّعر) تكمن في أنه (واقعة جماليّة) [3] و (الجمال) ظلّ إلى الآن ، سؤالاً محيّراً يدور في فلك يتنازعه قطبان عنيدان "أوّلهما (المنفعة) وثانيهما (المتعة) في آن .. ولم يستطع قطب من هذين القطبين أن يكون مركز هذا الفلك ، أو أن يحدد وظيفة الجمال ويدخله في إطار الغاية أو في إطار الوسيلة . ولعلّ اتفاقاً – لو حدث – بين القطبين – كان سيرضي ماهيّة الجمال التي تحمل في ذاتها : المنفعة والمتعة .

أهمية البحث وأهدافه:

تأتي أهمية البحث في ضوء العلاقة الجمالية بين قطبي المنفعة والمتعة بوصفهما عنصرين متلاصقين جدا في عملية الفكر ودالــّين على أبرز الإحساسات التي ينقلها إلينا الشّعر الحديث، وهنا لابد من الكشف عن ظاهرة القلق في هذا الميدان لما فيها من رؤى متنوعة وبعدٍ نفسيّ نحو ما هو مبدع وأصيل ، أما هدف الدراسة فهو البحث عن جماليات التجارب الإبداعية الثابتة والقيّمة وهي دون شك رسم لفضاءات من أجل استخلاص المعاني والدّلالات المتعدّدة المختلفة .

منهجية البحث:

إن البحث يفيد من مناهج متعددة مختلفةٍ ، بغية إدراك تركيبة الحياة واختراق للدلائل الفكريّة والرمزيّة من دون التشبث بمرجعٍ واحدٍ ، ومن هنا وجدت نفسي مضطّراً للخوض في هذا الاتجاه الذي يسمح بتناول العلوم والمناهج .

إثبات الوظيفة الشعرية من ادّعاء نفيها – الوظيفة الجمالية : (المتعة) .

كيف يكون إثبات الوظيفة بنفيها ؟ ! لن يكون صعباً على الشعر أن يثبت " وظيفته " لينسب إليه أعظم الوظائف في بنية شعرية خاصة "فالفنّ في جوهره خبرة من نوع خاصّ ليست بالحسّية ولا بالعقلية الموضوعية ، هو خبرة جمالية ، ولا يمكن فهم حقيقة الفن إن لم تفهم طبيعة الخبرة الجمالية " [4] ، وهنا يبرز سؤال ملحّ ، ينطلق

---

[2]) مجاهد عبد المنعم مجاهد :" جدل الجمال والاغتراب " ،مكتبة أنجلو المصرية، القاهرة ، عام1973 ص 147.

[3]) المصدر السابق . ص 140..

[4]) د.مصطفى سويف:" الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر "، دار العودة ،بيروت ، 1981 ص 127.

من الجمال والمتعة ليصل إلى " المنفعة " ، فحواه : " أليس للجمال منفعة كما أنّ للمتعة جمالها " [5]. ولعلّ الجواب على هذا السؤال يثبت أن وظيفة الشّعر كامنة في ذاته ، فــماهية الشيء توجد فيه .

إن المتعة الجمالية وسيلة الشّعر للوصول إلى الغاية ، فالجمال وسيلة الشّعر إلى غاية الجمال : " فالشّعر أحد وسائل غرس الجمال في الوجود كذلك فإنّ من وسائل غرس الجمال الكبرى الصورة الشعرية " [6] وإذا كانت ماهيات الأفراد في مجتمع معيّن أو ضمن شريحة فيه تتلاقى بقاسم (مهمّ) وحافز للنشاط هو :" المثل الأعلى " فليس غريباً أن يكون الشعر سؤال البشرية الكبير ، ويظلّ غاية لا تدرك ، ولكن تستحق السباق واكتشاف المثال الذي يتغير مع متغيرات المكان والعالم .

وقد خلق المجتمع الإنساني هذه الوسيلة الشعرية بدافع الحاجة إلى الالتذاذ وفي رأي أرسطو " أن الشعر – على العموم – قد ولّده سببان وأنّ ذينك السببين راجعان إلى الطبيعة الإنسانية ، فإن المحاكاة أمر فطري موجود لدى الناس منذ الصّغر ، ثم إن الالتذاذ بالأشياء المحكية أمر عام للجميع " [7] . ولكن هذه الوسيلة الجمالية التي خلقها المجتمع لــ (المتعة) حملت على عاتقها رسائل كثيرة أدّتها أدوات فنية عالية متجددة و أسلوبيات جمالية مضمنة تجلّيات لم تحرم من جوهر الفكر والرسالة . إن هذا الجوهر في بنية الفن عامة وفي الشعر خاصة الذي له قدرة استثنائية على التماهي مع الجمال – هذا الجوهر يعمل بطريقة سحرية وهو يقدم المتعة والمنفعة . لذا ، فالشعر يملك ما يراه حقيقة ووهماً في منطقه الخاص ، وينسج بينهما في خفاء وتجلّ معاً ، ويكون الكشف عبر هذا التناوب والتداخل والتعاور فيما يشفّ عنه كل منهما وهو يخبّئ الآخر ، ومن هنا سرّ لعبة المتعة في الشعر التي يتنازعها قطب المنفعة في دائرة الجمال .

الوظيفة الجماليّة الشّعريّة : المنفعة في رسائل مستهدفة .

أ)– مكمن الجمال في رسالة التّحرير :

الشّعر يحرّرنا من زماننا ويشدّنا إلى زمانه الذي يراه في نصّه الشعري فهو : " تحرير للإنسان من الزمان"[8] والأدب في حقيقته :" بناء زماني يتحرّر من الزّمن وينطلق من إساره " [9] ، لأنه ينطلق من أوضار زماننا يحررنا منها ويصوغ الزّمان الذي يجب أن نعيش فيه دونها ، إنّها حالة تحرير فيها التخطي الذي نمارسه خارج إسار عبوديّتنا لهذا الزمن وما فيه وما يمكن أن يوقع أرواحنا في التلوّث والتدمير واعوجاج الحياة التي يقاومها الشعر برسالة الجمال في المنفعة، فــ (الجمال لا يمتلك المنفعة فقط في نظر – إليوت –) بل إنه يرتقى ليصبح صراطاً للحياة ، وإذا ما فقد الإنسان صراط الجمال مرض "[10] . والسؤال هنا ،هل يلتقي الشعر في هذا الاستهداف النبيل مع (الفلسفة)؟!!

---

[5]) د. زكريا إبراهيم :" الفنان والإنسان " ، مكتبة غريب، القاهرة، د.ت ص 113.

[6]) د. مجاهد عبد المنعم مجاهد :" جدل الجمال والاغتراب " ، ص 174 .

[7]) د. إبراهيم وجيه محمود :" أساسيات علم النفس / مقولة المحاكاة لأرسطو " ،دار المعارف، القاهرة ، 1979 ص 8.

[8]) د. حسيني عبد الجليل يوسف:" الإنسان والجمال في الشعر الجاهلي "،دار الاتحاد العربي، بيروت ، مكتبة النهضة ، د.ت ، ص1718.

[9]) المصدر السابق ،ص17.

[10]) د. مجاهد عبد المنعم مجاهد :" جدل الجمال والاغتراب ،ص 10 .

والجواب هو " نعم " .. وإذا كان الجمال الشعري يلتقي في مضمونه مع الفلسفة ، فما ذلك إلا أنهما في محمولٍ واحدٍ مشترك هو " دعوة ونداء " لإنقاذ روحه (الإنسان) وإخراجه من قبضة التحكم المادي والفيزيقيّ"[11].. في زمن محتمل أنها صميمية إنقاذية تجمع الشعر والفلسفة وهما يندهان ، كل على طريقته إلى الحقيقة الخلاص في أثناء صياغة العالم الشعري ، هذه الوظيفة الإنقاذية لجمال الشعر التي تتطلع إلى التحرير يجدر التأكيد أنها لا تختص بالشعر وحده ، بل تمسه وتتقاطع معه بقدر ما تمسه وتتقاطع معه بقدر ما تمس الفن وتتقاطع معه بعموميته... وقد أكدّ الفلاسفة دور الفن والتربية الجمالية في :" عملية تحرير الإنسان من أسر القمع والاغتراب وشتى مظاهر شقاء الضمير الحديث " [12].

ب)- مكمن الجمال في دراسة الاستكشاف الاجتماعي والإنسانيّ ....

يوظف الشعر قواته الأدائية في استكشاف حالة الإنسان ويربط همومه ربطاً شمولياً ، لا يستطيع الشعر أن يعزل نفسه عن المكان وعن العصر ، ويرى أنّ عذاب إنسان في أي جزء من الأرض هو عذاب البشرية كلها ، بل إنّ (الموت) لدى الشاعر يغدو موتاً إنسانيا لا شخصيا ، ومعاناة تكتنف الحياة في كل مكان ، لا حياة شخص بعينه، ومثل هذا التوجه الشمولي هو الذي جعل قصيدة أبي العلاء المعري في رثاء أستاذه أبي حمزة تمسّ أعمق أعماق النفس البشرية منطلقة من الخاص إلى العام ، من دائرة فقدان ضيقة بموت واحد من ملايين البشر إلى الموت الذي ينتظر هذه الملايين وقد كمن الجمال في الرسالة التي بثها صوت أبي العلاء المعري المتحشرج والمتأمل والمتفلسف في النص الأثير .. وبهذا يتحرر المرء من شكوكه وألمه وحزنه اليومي والإنساني ، إنّ الفن تحرير " بسبب ما فيه من شمولية " [13] ، ونزعم أن الشعر أهم أركان الفنون في خلاص البشرية واستكشاف حالها ومآلها وتوثيبها إلى مواقع جديدة خارج آلامها ، بما يمتلكه هذا الفن العظيم من رؤية ورؤيا ، وقوى حدسية تنبئيّه المعاناة التي تفرد جناحيه وتبعث فيهما القوة والطيران من داخل المعاناة وليس فوقها أو خارجها ومعظم علماء الجمال يميلون إلى : " القول بأنّ عمل الفنان هو وحده الذي يسمح لنا بفهم الإنسان الحقيق " [14].

إنّ عين الفنان المتعبة اللهفى على المصير الإنساني بإحساساتها الإنسانية التي تترجمها إلى جمالية طاغية مثقلة ، حانية على الناس والأشياء والعالم ، هذه هي العين ، تمد خيوط الحياة إلى كل ما تراه ، ولهذا فإنّ غوتّه يقول :" الفنان يستكشف في الطبيعة ما لا تراه عين الإنسان العادية " [15] وإذا كان هذا الاستكشاف يتطلع نحو الحقيقة ، فإن سدوداً صادّةً كثيرة تعترض مسيرة بحثه ، وهو في رؤيته هذه يفجر الضوء في ظلمة الحقيقة ، وينزع عنها أقنعتها .

وهنا ، يحقّ لنا التساؤل المركزي ، هل الغموض في هذا البحث عن هذه الحقيقة التي يكون لها استمدادات لا حصر لها، يبرز شيئاً فيها ليختفي آخر ، ويظهر شيئا مغطى بشيء آخر ، وقد يعمل المؤثر الخارجي عمله في منع الرؤية وفي حجب خيوط الضوء ، وفي الوقت نفسه ، قد يعمل المبدع على تغطية ما بأدوات معينة يسمح ببؤرة

---

[11]) المصدر السابق :" الفلسفة والحنين إلى الوجود " ، ص 128 .

[12]) د. زكريا إبراهيم :" الفنان والإنسان "، ص 128 .

[13]) د. مجاهد عبد المنعم مجاهد :" الإنسان والاغتراب "، ص 43.

[14]) د. زكريا إبراهيم :" الفنان والإنسان " ، ص 43.

[15]) د. مجاهد عبد المنعم مجاهد :" جدل الجمال والاغتراب "، ص 135.

ظليلة تسمح لبعض الملامح أن تستبطن أجزاء من استلهام إما لغاية فنية وإما بسبب القمع الموضوعي الذي يمارس بقوة على التعبير العربي، الإبداعي منه خاصة ولهذا فليس من الغريب أن يقال :" إن كثيرا من الغموض يكتنف شخصية الفنان " [16] .

لكن الشاعر – مع كل أحواله ، هو :" ذلك المخلوق الذي لا يحيا لنفسه بل للآخرين " [17] لأنه – حتى وهو يعبر عن ذاته ، فإن هذه الذات تتماهى مع الموضوع يتناسجان ، وتطغى ماهية إحداهما على الأخرى في إرادة التعبير . إنه يضع نفسه في مواجهة إنسانية معذِّبة ، وتتآلف في همومه بوارق الأمل والإنقاذ بالمعرفة الحدسيّة التي تصل إلى يقينه من دون أن يجد تفسيراً لها أو برهانا عليها " فالفنان ليس مجرد إنسان يحيا لذاته ، ويعمل من أجل إشباع حاسته الفنية ، بل هو أيضاً إنسان يحمل رسالة ، ويشعر أنه ينطق باسم قوة عليا تعلو على شخصيته ،ولعل هذا هو السبب في أن الفنانين كثيراً ما كانوا يشعرون بأن لهم حياة أخرى تعدو نطاق وجودهم الزماني الذاتي" [18] .

ولأن الفنان مع الآخرين ، ويجدهم قيمة لا يدانيها ثمن ، وهو مندرج معهم في المصير الإنساني ، فإن الجمال " ليستهدف نزع العداوة من العالم " [19]، هذه المقولة ، تصدق بقوة على الشعر تحت عنوان الجمال الذي لا يقف عند حدّ نزع العداوة واستئصال كل ما يشوه الجمال وجه البشرية الجميل ، بل إنه ينهض ليلمّ تلك الأشتات المبعثرة فيكون بذلك " سلاحا لاستعادة الوحدة المفقودة " [20] وأداة هذا السلاح هو الجمال الشعري الذي يقدم لنا صلات كل موجود في أحوال تراها عين الشاعر وحده ، ليكون شعره صوت الحياة الخفي وسرّها ، يؤدي لحنه الغريب الذي لا تستطيع المسامع المحمومة المحسوسة بمس السيرورة والاعتياد أن تلتقط اهتزازاته الخفية الغائرة بل إن اهتزازاته رعشة خفية تصل إلى مسامع متلهفة لجوهر الخفاء الذي ما إن يتبدّى ويتجلـّى حتى يعود للخفاء مرة ثانية ، ليظلّ الشاعر أسير اللحظات المتكشفة باستمرار ... إنه بتلك اللحظات الأسيرة يشتري حريته الأبدية له، ولنا .

ج– مكمن الجمال في رسالة مسيرة مواجهة القلق .

ما دامت مهمة الشاعر الكشف عن غائية الوجود كشفاً إنسانياً محرراً ، فإن أعماله الشعرية يمسح وجهها الحزن بسحابة من الحزن العميق الشامخ في أحيان ، لأن الشاعر ذلك الباحث الدائم ، قد يعود مبتسماً إذا ما استغلقت عليه نوايا الأشياء ، ذلك أن (تجربة الإنسان حين لا ترتبط بتفسير يكشف عن غائية الوجود و سرمديته لابدّ أن تقترن بإحساس الفقدان والضياع والألم والقلق) [21]، ويبدو أن هذا هو قدر الشاعر أن يعيش في القلق ويدفعه القلق إلى التعبير والإبداع ، فالشاعر أحوجُ الناس إلى القلق والألم ، والفقدان ، لأنه أكثر بحثاً عن الغاية في شعره ، والبحث أحد وظائف الشعر المهمة ... التي تبحث عن التفسير الوجودي لتركيبة الحياة التي يتعاورها القلق وهي تتهد إلى أن تكون قوية مقبولة ، تستحق الدوام ، ويتدخل الجمال الشعري ، هنا في أنه قد يتوصل إلى هذا

[16]) د. عز الدين إسماعيل :" التفسير النفسي للأدب ،ص 27.

[17]) د. زكريا إبراهيم :" الفنان والإنسان " ، ص32.

[18]) المصدر السابق ، ص 135.

[19]) مجاهد عبد المنعم مجاهد" جدل الجمال والاغتراب ، ص135.

[20]) المصدر السابق، جدل الجمال والاغتراب ، ص 69.

[21]) د. حسيني عبد الجليل يوسف :" الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي"، ص 8.

التفسير وبدافعية القلق المبدع ، متجاوزاً مراحل التجربة البشرية العامة مستعينا بالقدرة على " الحدس " " ملكة الإنسان الطبيعية التي تشكلت عبر آلاف السنين "[22] وتعمّقت ودقت لدى المبدعين الشعراء منهم بخاصّة ، إذ غدت مرهفة قادرة نافذة بالكشف عند الشاعر المتأمل الذي يستعين أيضا بـــ :(القدرة على تفهّم الأشياء بالحكمة دون التجرُبة)[23] في أحايين بطبيعة الحال ، ومن هنا يقف (القلق) دائما وراء رحلة الشاعر ، ولعل الشعر في بحثه وتساؤله يحاول دائما أن يجد إجابات عن أسئلة القلق ، أن يستنبت إيقاعاً يتوازن ويتحرك ، مع إيقاع العالم المضطرب ، لا ينساق خلفه ، بل ليواجهه بالقلق الذي يفتق ويغير ويعيد البناء ، والترنيمة الإيقاعية الجديدة التي تتكون قصيدة تفكّ ملامح العالم لتعيد ترتيبه أحلى وأبهى ، فإذا كان الشعر ترنيمة غنائية صادقة تولدت عن القلق المبدع ، فإن :" تلك الأغنية .. هي صورة من صور الاتزان أو هي انتصار على القلق "[24]. إن المسيرة الشعرية في مواجهة القلق لن تصل إلى لحظة انتصار، بل على الأغلب إلى لحظة انكسار ، و تحيا تلك اللحظة بالانبعاث ، ربما يدرك الشاعر بحساسية مرهفة أنه يواجه حياة لا تكشف عن وجهها مرة واحدة ، ومثل هذه الحالة تحطّ به في دوّامة القلق ، وهو يوظّف شعره في إزالة الأقنعة المتوالدة فكيف يمكن للشاعر أن يزيل القلق ؟ والحياة لا تحتفظ بوجهٍ واحدٍ حتى عبر اللحظة الواحدة ، كيف يباعد القلق والحياة تمارس – عبر جدله معها – كشفها عليه نفسه!!!؟.

وينبع الكشف عليه من طرفها ، من احتيالها عليه ، و المماهاة في أبعاد عدة ، ومن فحص مشاعره واستسقاء أفكاره لكي تأخذ المواجهة صفة التعرف بالتضاد ، لكنه تعرف جزئي مؤرق يبقي على وجعه الفردي والبشري ، والمنفعة تنبثق هنا من مساحات الضوء المتلاحقة التي لا تجعل لعبة القلق مطلقة مستغلقة ، بل تشي بوصول ما ، تواصل ما نحو الحقيقة وانتصار إنساني :" وربما كان السر في شقاء الذات البشرية هو أنها لا تستطيع مطلقا أن تبلغ مرحلة الاتزان العاطفي " [25] .

فوظيفة الشعر في الانتصار على القلق هي عمليّة دائمة في سبيل الوصول وبالرغم من أن صورة الشعر قد تحمل ألوان الانتصار على القلق إلا أن ذلك الغليان الداخلي سيبقى في أعماق الشاعر دائما حتى لو رأينا ملامح السكينة تظهر موارية على وجه بعض قصائده آنا فـــ " السكينة التي تشيع في العمل الأدبي لا تعني بالضرورة أن تكون في حياة الفنان سكينة مماثلة " [26] .

" والشعر بقلقه الجميل معتد بعذابه ورقته على الرغم من أنه استبعد من مدينة أفلاطون الفاضلة ، وخضع في التاريخ للقهر مرات وأرخى عنانه للريح مرات " [27] إلاّ أنّ جموحه المتوثب كان ينطلق به دائما عما يحطم جناحيه ويشدّه إلى تحت الذي لم يصادقه ويركن إليه قط ، بل يسعى إلى الحرية يتحلّل من قلقله المتلبس به في مسيرة لا تنتهي في الكشف .

الإنسان لا يحتمل أن يعيش وحده ، ينتمي إلى الناس ، ويواجه الحياة بهم بل يغدو الموت أسهل عليه معهم ، سقوطه منهم وانتصاره لهم ، وتنشأ لديه حالات من القلق حين تكون قطيعة من نوع ما بينه وبينهم ... من هنا ينبثق

---

[22]) محمد سعيد مغنيّة :" البيولوجي والاجتماعي في الإبداع الفني " ، ص 3.

[23]) زهدي جاد الله :" أصول علم النفس في الأدب العربي القديم " ، ص 22.

[24]) زكريا إبراهيم :" الفنان والإنسان " ص 19.

[25]) المصدر السابق.، ص6-7 .

[26]) المصدر السابق.، ص6-8 .

[27]) د. إحسان عباس :" تاريخ الأدب العربي – عصر الطوائف والمرابطين " ،دار العودة، بيروت 1978 ، ص7.

دور الشاعر ، وإذا كان أفلاطون " يعزو قيام المجتمع إلى شعور الإنسان الفرد بعجزه عن الاكتفاء الذاتي " [28]، وإذا كان أرسطو يقرّر أنّ الإنسان :" مدنيّ بطبعه وأن هدف صلته بالآخرين هو الخير والسعادة " [29] فإنه لا بد أيضا لهذا الكائن الإنسان الوحيد على الأرض من حلم خارق ينطلق به هارباً من جدار الفناء والمستحيل والعجز ، لا بد له من الشعر (الحلم والحقيقة) ليواجه القلق .يتحول القلق هاجسا يؤرق الشعر ويؤرق البشرية ويتفجر ينابيع جمال وأسرار لا تحدّ ، وهكذا أصبح انتماء الشعر إلى هموم أرضه القلقة مقياساً اعتبارياً في تقييمه فــ": كلّما عكس بصورة أعمق الاتجاهات الأساسية لمجتمعه ، وكلما كان أكثر إحساسا ببرودتها جاء عمله الإبداعي أرفع قيمة " [30].

والشاعر يجتهد في محاولة استعادة الوجود من حوله له ولإخوانه من أبناء الأرض وحتى لو لم يقدم لنا أكثر من قصيدة شفافة لمرآة تنقل صورة جميلة ، فإن لهذه الشفافية وظيفة التطهير للنفوس التي باغتسالها الجمالي تكون أقدر على أن تكون وهذا يعيدنا إلى رأي أرسطو في مهمة الفن والشعر بالتطهير والمحاكاة .. كانت المحاكاة حاجة ملحة جدا للإنسان الشاعر العبقري الذي يربطه إبداعه بالمغامرة أحيانا وبالجنون الإبداعي أحيانا أخرى .. ولعل حركة هذا :" العبقري تبدأ من تصدع الــ نحن "[31] وعبقريته داخل هواجس القلق الذاتي والاجتماعي تكون :" متجهة إلى استعادة الــ (نحن) في تنظيم جديد " [32]والشاعر في محاولته هذه محكوم عليه بالإخفاق غالبا ، فالــ (نحن) قد تأبى الاجتماع في وحدة وجودية ترضي الشاعر ، بل إن الشاعر قد يخفق أيضا في إيجاد نفسه المتصدعة الضائعة !! .

لقد حاول السياب وهو شاعر معمّد بالألم أن يلم شتات نفسه وكان :" يحاول إيجاد ذاته دون جدوى " [33] ولكن هذا الإخفاق في إيجاد ذاته ، لم يقف دون محاولاته المتكررة المتجهة نحو مسح آلام البشرية القاسية ، لقد غنّى الشاعر السياب للقرى المعذبة .. للجوع في العراق .. لجيكور .. وكان يعرف كيف يوقظ السؤال الكبير في الأشياء حتى في الصغيرة منها الاعتيادية ... وما يقف وراء هذا الشاعر ، وغيره ، دائما في رحلة الإبداع ، هو القلق .

خاتمة:

– يظل الشعر بجماليته وقوته وطموحه وأحلامه ، وبماهيته ومنابعه محيرا للعقول ويظلّ جمال ماهيته شيئا مثيرا جاذبا يكتسب مكمن جماليته من وظيفته الإيحائية الغامضة فنيا .

هل يصوغ الشعر ماهيته من تفجر عالم مكبوت في الداخل كما يظن فرويد وعلى هذا انبثقت جمالية هذه الماهية في ثورة عنترة بن شداد مثلا وهو يوظف شعره ردا على اغترابه في قبيلة بيضاء تتنكر لغرابها الأسود.

– تبقى ماهية الشعر سلسلة متوارثة تنحدر إلينا من أسلافنا !!؟ بحسب يونج .. فصارت إلى قوة ذات قدرة عظيمة على التأثير لا يمكن مضاهاتها ، وبقيت ترثنا ونرثها إلى الأبد ، فهي إرث تاريخي وتاريخ يورث . ومن

[28]) محمد عبد المنعم نور :" الإنسان ومجتمعه " ، ص 17.

[29]) المصدر السابق ، ص 18.

[30]) محمد سعيد مغنيّة :" البيولوجي والاجتماعي في الإبداع الفني " ، ص 52.

[31]) د. مصطفى سويف :" الأسس النفسية في الإبداع الفني " ، ص 125.

[32]) المصدر السابق ، ص 145.

[33]) أحمد عودة الشقيرات :" الاغتراب في شعر بدر شاكر السياب " ، ص 6.

المفيد ألا ننسى أن الشعر العربي وقع تحت سيطرة الملوك والأمراء في هذا التاريخ الذي تماهى فيها وتماهت هي مع وجودنا الإنساني عبره .

– إن شعرنا العربي وقع في أغلبه محاصراً لدى الأمراء وأمزجتهم وأهوائهم . ولم يتخلص جلّه حتى الأوان الراهن من أن يكون سلعة يصدق عليها مبدأ العرض والطلب ، وكان نفاقها بمقدار ميل الأمير إليها أو حاجته إليها أو قدرته على تقديرها واستساغتها.

مما أفقده جوهر هذه الماهية ، ووظف جماليتها خارج هذا الجوهر الذي تزدهي به ، إنه تشويه مستمر فهل سقطت هذه الماهية على عتبات التاريخ حقا ؟ ، وهل سقطت جماليتها نتيجة ذلك ، إذ تكرر إلى حد الملال ، مع انتفاء الوظيفة المتعلقة بالجوهر المضيء . والجواب – بطبيعة الحال– لا ينتظر حتى يرد على هذه الرؤية الكارثية التي لا تعني الحقيقة كلها في جوانب المشهد الشعري التاريخيّ .

– إن الشعر في جانب لم يحن رأسه أبدا بل ارتقى بماهيته على الدوام ، كما ارتقى مع المتنبي العظيم مثلا الذي كان يهدي أكثر ممدوحيه عظيم شعره ،ويضمّنه فخره بنفسه ويضفي عليهم من عظمته. لقد عرف الشعر في ذاته تلك القدرة العظيمة ومن الشعراء قلب أحوالا في زمانه بقصيدة أو ببيت شعر "، ويبقى التقاط جمال ماهية الشعر من الأمور الصعبة كما يظنّ يونج .

– إن مكمن الجمال في الشعر ليس جزءاً محدداً في الماهية بل في كليته ... لأن بعضهما – الجمال والماهية – يعكس الأخر ويبادل به في خفاء وجودهما . وهذا يعود بنا إلى رأي هيدجر الذي يقول :" عندما نحلل قصيدة ، نجد الصّور الشعرية و الحدث والصياغة والوزن والقافية والأخيلة والصور ولم نجد عنصر الجمال ، فالحقيقة الأبدية والخالدة هي أنه من طبيعة الجوهر أن يختفي، والاختفاء هو جوهر الجمال أي أن ماهية الجمال هي جمال الماهية ".

– إن الخفاء في الشعر– بحسب هيدجر– ليس الكلمات والأبواب المغلقة حتى من دون مفاتيح بل هو الاستخفاء والتواري الذي يتلامح دون أن يتحدد تحديداً ، بل يتكون فكرياً ، بل يبقى يتكون بعد كل القراءات من قراءة إلى قراءة ومن لحظة إلى لحظة ، ومن زمن إلى زمن ، ومن إنسان إلى إنسان حتى لا يفقد الشعر جماليته في ماهيته ، ولا يضيع ماهيته التي فيها جماله فلا يذر شيئا منها.

– الشعر جزء من إنتاج العالم ، وعندما ننتج الجمال نخلص من كل مشاكل العالم وبذلك يتحقق التوازن بين سعة الحياة بما فيها من مفردات وتجارب ومقدرات وبين سعة إنتاج الجمال بما فيه من رسالات وقدرات أمام فواصل الحياة .

المراجع:

1) إبراهيم وجيه محمود : " أساسيات علم النفس " . القاهرة ، دار المعارف، 1979م .
2) إحسان عباس : " تاريخ الأدب العربي – عصر الطوائف والمرابطين " .
3) أحمد عودة الشعيرات : " الاغتراب في شعر بدر شاكر السياب " . الأردن ، عمان ، ط1 ، 1978 م .
4) أرسطو طاليس : " في الشعر " ، ترجمة متّى بن يونس ، تحقيق ومراجعة د. شكري عياد . القاهرة ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، 1967 م.
5) إميليو غرسيه غومث : " الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه " ، ترجمة د . حسين مؤنس : القاهرة ، ط2 ، 1956 م .
6) د. حسيني عبد الجليل يوسف : " الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي " ، بيروت ، دار الاتحاد العربي ، مكتبة النهضة .
7) زكريا إبراهيم : " الفنان والإنسان " . القاهرة ، مكتبة غريب . دون تاريخ .
8) زهدي جاد الله ، أصول علم النفس في الأدب العربي القديم ،دار العودة ،بيروت،1982 ص27.
9) د. طه حسين : " خصام ونقد " . بيروت ، دار العلم للملايين ، ط7 .
10) د. عز الدين إسماعيل : " التفسير النفسي للأدب " . القاهرة ، دار المعارف ، 1963 م.
11) مجاهد عبد المنعم مجاهد :
أ) " جدل الجمال والاغتراب " . القاهرة ، مكتبة أنجلو المصرية ، 1965 م.
ب) " الفلسفة والحنين إلى الوجود "، القاهرة ، دار الثقافة والنشر والتوزيع ، 1990 م.
12) محمد سعيد مغنية : " البيولوجي والاجتماعي في الإبداع الفني " ، مقالات مترجمة عن الانجليزية لـــــ yako. بيروت ، دار العودة 1972م.
13) محمد عبد المنعم نور : " الإنسان ومجتمعه " . القاهرة ، دار المعرفة ، 1987 م.